الأشاريات المكانية في تفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور

أ.د. رجاء عجيل إبراهيم الحسناوي م.م. ستار هويدي علي
جامعة كربلاء - كلية التربية

فحوى البحث

يستثمر هذا البحث أول درجة من درجات التداولية بحسب تقسيم (هانسون) للتداولية، ولتعدد الإشاريات التي تدرج في ضمنها، ولسعة حجم المدونة التفسيرية فقد تمّ الاقتصار في هذا البحث على (الإشاريات المكانية) لتطبق على هذا التفسير لنستجلي المقاصد التداولية التي تنطوي عليها تلك الإشاريات التي لا تدرك إلاّ عبر السّياقات والقرائن الحافّة بالخطاب القرآني، وقد كان من المحتمّ لكي يستوي البحث أن يبنى على مقدمة يتلوها تمهيد تعريفي ومبحثان وخاتمة بنتائج البحث وثبت بمظانه، أمّا التمهيد فقد احتوى على تعريف بـ(ابن عاشور وتفسيره، والإشاريات، والإشاريات المكانية) وتمّ في المبحث الأول معالجة (الإشاريات المكانية عبر أسماء الإشارة) أمّا في المبحث الثاني فقد تناول البحث (الإشاريات المكانية عبر اسم العلم) وأخيرًا خاتمة البحث ونتائجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

ينتمي هذا البحث إلى ضربٍ من ضروب قراءة التراث التفسيري قراءة معاصرة تستثمر المنهج التداولي، فالتقريب التّداولي لنصوص التّراث سيشارك في إضاءة الجوانب الحيّة منه وإعادة نشرها من جديد بما يتقارب مع معطيات الدّرس اللّساني الحديث، وبالخصوص إذا علمنا أن خطاب التّفسير يشترك مع التّداولية في البحث عن المعنى، وعليه تمّ اختيار جزئية من جزئيات البحث التداولي هي الإشاريات المكانية لتطبق على أحد أشهر التفاسير في العصر الحديث ألا وهو تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ليستوي البحث على عنوان ((الإشاريات المكانية في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور))، ليستجلي لنا المقاصد الدلالية التي تنطوي عليها بعض المبهمات الي لا يمكن لها أن تتضح إلاّ عبر السّياقات والقرائن الحافّة بالخطاب القرآني، وقد استقام البحث على بناء قوامه مقدمة يتلوها مهاد تعريفي ومبحثان وخاتمة بنتائج البحث وثبت بمظان البحث، أما المهاد فقد احتوى على تعريف بـ(ابن عاشور وتفسيره، والإشاريات، والإشاريات المكانية) وجاء المبحث الأول بعنوان (الإشاريات المكانية عبر أسماء الإشارة) أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (الإشاريات المكانية عبر اسم العلم) وأخيرًا تكلل العمل بخاتمة البحث ونتائجه.

مهاد تعريفي: (ابن عاشور وتفسيره، الإشاريات، الإشاريات المكانية):

١. ابن عاشور[1] وتفسيره:

هو المفكر الإصلاحي والمثقف الموسوعي والمفسر المقاصدي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن

(١) لم نتوسع في هذا الجانب، لكثرة الترجمات والدراسات التي تناولت سيرة حياة هذا المفسر ولا أرى ثمة فائدة من تكرار ما ذُكر لذلك ستكون وقفتنا قصيرة معه ومن الوفاء بفضل تلك الدراسات نذكر بعضًا منها ينظر على سبيل المثال: ابن عاشور ومنهجه في التفسير: ٥ -١٥، والدراسات النحوية في تفسير التحرير و التنوير: ٦ -١٢، والمقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير: ١٩ -٢٧.

محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور. أندلسي الأصل، تونسي المولد والنشأة والوفاة[٢].

ولِدَ ابن عاشور في عام ١٢٩٦هـ-١٨٧٩م، ونشأ في رعاية والده، فحفظ القرآن الكريم وتعلَّم العربية وأحبّ الأدب، وكان للمجالس الأدبية والفكرية التي تُقامُ في دار والدهِ (محمد) أثر واضحٌ في انصرافهِ للعلمِ، والاستزادة من المعرفة، ممّا أهَّلهُ للالتحاق بجامع الزيتونة عام١٣١٠هـ[٣]، للحصول على شهادة التطويع[٤]، تسلَّم ابن عاشور منذُ حصوله على تلك الشهادة مناصب علمية وإدارية مهمة في تونس، فقد أصبح مدرسًا من الدرجة الأولى وأصبح نائباً لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية، وفي عام (١٣٤١هـ) صدر الأمر بتلقيبه بشيخ الإسلام المالكي، وعُيِّن في السنة نفسها شيخاً لجامع الزيتونة وفروعه. والذي يود الباحث بيانه أن المفسّر على الرّغم من تلقيبه بشيخ الإسلام المالكي كان ينتهج مذهب الإمام أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، وقد صّرح بذلك في مواضِعَ من تفسيرهِ[٥]، وألف ابن عاشور في عدّة مجالات، نحو: العلوم الإسلامية واللغة والأدب، والفلسفة، والاجتماع[٦] حتى حصل على مكانة علمية كبيرة، عرفها له القاصي والداني، إذ كانت حياتهُ سجلاً حافِلاً بالعلمِ والتدريس والتجديد والإصلاح، والدعوة إلى نبذ الخلافات، وتوحيد جامعة الأمة[٧].

(٢) يُنظر: الأعلام: للزركلي: ٦/ ١٧٤، ومعجم المفسرين: ٢/ ٥٤١-٥٤٢.

(٣) يُنظر: تونس وجامع الزيتونة: ١٢٣، والدراسات النحوية في تفسير التحرير والتنوير: ٦.

(٤) شهادة التطويع: رتبة علمية تؤهل صاحبها لإقراء العلوم بجامع الزيتونة بعد أخذ إذنا من شيوخ النضارة العلمية المشرفة على إدارة التعليم الزيتوني، ينظر: الدراسات النحوية في تفسير التحرير والتنوير: ٦.

(٥) يُنظر على سبيل المثال: تفسير التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٧.

(٦) ينظر: معجم المفسرين: ٢/ ٥٤٣، والدراسات النحوية في التحرير والتنوير: ١٣-١٦.

(٧) يُنظر: الدراسات النحوية في تفسير التحرير والتنوير: ٨.

وبعـد عمر طويل، حافل بجلائل الأعـمال تـوفي الشيخ محمد الطاهر بن عـاشـور في ١٢/ رجـب/ ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م[٨]، في تونس، ودُفِنَ في زاوية جَـدّه بنهج الباشا في حـاضرة تونس وقد نعته الأوساط العلمية، والأدبية، والمجامع اللغوية، مُشِيدَة بما قدّمَهُ للأمة من فِكر نيّر، وعلم غزير، وكتب نافعة[٩].

يُعدُّ تفسير ابن عاشور الـذي أفنى فيه أربعين عاماً تفسيراً موسوعياً -وإن كان في نظر مؤلفه مختصراً[١٠] -إذ ضمَّ علوماً و معارفَ مختلفة؛ فلذلك يمكن القول إنّـه دائـرة معارف متخصّصة في علوم الشّريعة وعلوم اللغـة، إذ أحاط فيه صاحبـه باللّغـة العربيّة، فله فيها استنباطات عجيبـة، وتأملات تؤكد مدى تعمقه في القضايـا التي يعالجها وسبره المسائل التي يخوض فيها[١١]، فهو صورة صادقة للشّخصية العلمية التي كان يعرف بها الشيخ ابن عاشور[١٢]، ودليل على إمامته في العلوم اللغوية و الدّينية؛ ولذا بات من الضّروري التعرف إلى هـذا التّفسير و سنبدأ من عنوانه، فقد أشار ابن عاشور في التّمهيد الى أنّه قد سمّى تفسيره هذا: (تفسير التحرير والتنوير من التفسير)، وهـذا العنوان بالأحرى قد اختصره من عنوان أوسع إذ قال: ((وسميتهُ «تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» واختصرت هذا الاسم بـ «تفسير التحرير والتنوير من التفسير»)) [١٣]، أمّا سبب تأليفه فقد أشار ابن عاشور في مقدِّمةِ تفسيره إلى الغاية من تأليفه هذا التّفسير عبر قوله: ((طمعاً في بيان نكت من العلم، وكليّات من التّشريع، وتفاصيل مـن مكـارم الأخـلاق كان يلوح أنـمـوذج مـن جميعها مـن خـلالِ تدبره، أو مطالعة كـلامِ مـفُـسِّره))[١٤]،

(٨) ينظر: معجم المفسرين: ٢/ ٥٤٣.
(٩) يُنظر: ابن عاشور ومنهجه في التفسير: ٢٥.
(١٠) ينظر: تفسير التحرير و التنوير: ١/ ٨.
(١١) ينظر: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير: ٣٨.
(١٢) ينظر: الـدراسـات النحوية في تفسير التحرير و التنوير: ٢٠.
(١٣) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٨.
(١٤) المصدر نفسه: ١/ ٥.

فقد توجّه ابن عاشور إلى القرآن بدافع فهم جديد برؤية مقاصديّة ونزعة اصلاحيّة حين أكّد أنّ ((الغرض الأكبر للقرآن هو اصلاح الأمة بأسرها))[١٥]، فبعد البحث والدّراسة لا يجد ضالته في الكتب التّفسيرية الموجودة؛ لأنّها – كما يرى –تفاسير قليلة الفائدة وكثيرة النّقل والحشو فهي ((وإن كانت كثيرة فإنّك لا تجد الكثير منها إلاّ عالة على كلام سابق))[١٦]، فالمفسر يرى أنّ ذلك في تضاد مع رسالة القرآن التي تتطلّب التّجديد في القراءة وأدواتها لغرض تحقيق فهم جديد ولاكتشاف معارف ومفاهيم جديدة من القرآن؛ ((فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له نفاد))[١٧]، وعليه لابدّ من تفسير يعتمد على التّدبر والتّعمق في معاني القرآن واستخراج آراء جديدة عبر تأويل سديد؛ إذ لا يجوز أن يبقى التّفسير تسجيلاً يقيد به فهم القرآن ويضيق به معناه، ثمّ يرى المفسّر أنّ ليس كلّ من فسّر القرآن فهم مقاصده وأدرك مراميه بل يحتاج ذلك إلى أناس قادرين على استنطاق النّص القرآنيّ واستيعاب خطابه والوصول إلى أهدافه ((فمراد الله من كتابه هو بيان ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدّين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابًا بينًا وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه))[١٨]، يتبين لنا من كلام ابن عاشور أنّ عمل المفسّر و فهمه إنّما يجب أن يدور مع المقصد، فالمقصد القرآني هو قطب الرّحى في حركة المفسّر بمختلف نواحيها ومستوياتها. فبحوث المفسّر، وتحليلاته اللغويّة، أو البلاغيّة، أو الكلاميّة، أو التّشريعية، أو الاجتماعيّة كلّ ذلك يجب أن يصب في خدمة المقصد القرآني أساسًا[١٩].

ومن هنا فهو تفسير غني بالآراء والأفكار التي من شأنها أن تنهض

(١٥) المصدر نفسه: ١/ ٨٠.
(١٦) المصدر نفسه: ١/ ٧.
(١٧) المصدر نفسه: ١/ ٧.
(١٨) المصدر نفسه: ١/ ٣٧.
(١٩) ينظر: الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور، مقال منشور على الأنترنت.

بمعانٍ تفسيريّة تتناسب ومتطلبات العلم والعصر، وبالإمكان القول: إنّه تفسير عصري يحاول أن يجد له الصدى في الواقع التطبيقي للمعاني القرآنيّة على الواقع العملي للإنسان، ويقوم بأداء الوظائف المنهجيّة بنظرة مقاصديّة تلك النظرة التي تتبلور عبر قراءة اجتماعيّة للنصّ أو قراءة فلسفيّة أو قراءة كلاميّة وما إلى ذلك من قراءات مختلفة، وهذا الطّرح الذي أبداه مفسّرنا هو عين ما أقرته الدّراسات التّداولية وبذا فإنّ مقاربتنا لهذا التّفسير في ضوء المنهج التّداولي سوف تأتي أكلها إن شاء الله- تعالى -.

٢. الإشاريات:

تُعدّ الإشاريّات الدّرجة الأولى من درجات التّحليل التّداولي، على حدّ تقسيم (هانسون) ويعرّفها الأزهر الزّناد بأنّها: ((قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة بل تعود على عنصر، أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب فشرط وجودها هو النّصّ))[٢٠]، وهي عند براون ((الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها لا على معناها الخاصّ، بل على اسنادها إلى شيء آخر))[٢١].

أو هي: العلامات اللّغوية التي لا يتحدّد مرجعها إلاّ في سياق الخطاب التّداولي الذي وردت فيه، فهي خالية من أيّ معنى في نفسها؛ لذلك سميت مبهمات، وعلى الرّغم من أنّ كلّ الكلمات في اللّغة تحيل إلى مدلول معين، إلاّ أنّ الإشاريات تتواجد في المعجم الذّهني للمتكلمين باللّغة من دون ارتباطها بمدلول معين[٢٢].

وعلى الرّغم من ارتباط العناصر بالمرجع عند استعمالها في السّياق التّلفظي، إلاّ أنّ علاقتها بهذا المرجع غير ثابتة وخاضعة لظروف الاستعمال والموقف التّواصلي، ومن هذه العناصر: الضّمائر (أنا)، و(أنت)، و(هو)، وإشارات (هذا)، و(ذاك)، و(الآن)[٢٣]، وتعتمد

(٢٠) نسيج النص: ١١٨.

(٢١) تحليل الخطاب: ٢٣٠.

(٢٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨٠، والمرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث: ٤٠.

(٢٣) ينظر: المقاربة التداولية: ٤١.

جميعُ هذه العناصر في تفسيرها متكلمًا، ومستمعًا يتشاركان السيّاق نفسه [٢٤]، ومن ثمّ فهي تعنى باستجلاء مدى ظهور التّرابط بين المتكلم والمُخاطَب والسّياق الزّماني والمكاني في الخطاب، عبر تتبّع العناصر الإشاريّة، المتمثّلة في الضّمائر وظروف الزّمان والمكان، وما تحيل عليه في السّياق الذي وردت فيه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المصطلحات المعبّرة عنها قد تعدّدت، فعبّر عنها دي بوجراند بـ(الألفاظ الكنائيّة)[٢٥]، و أطلق عليها الأزهر الزّناد: (العناصر الإحاليّة في اللغة)، وعدّها من قبيل المعوضات التي تأتي تعويضًا عن وحدات معجميّة[٢٦].

إلا أنّ أوّل من أطلق على هذه العناصر مصطلح الإشارة (deictics) أو الإشاريات هو (تشارلس بيرس)، وعلى هذا الأساس يعدّ أوّلَ واضع لهذا المصطلح في البحث التداولي[٢٧]، وقد اعتنى بالإشارة عناية خاصة وبحث عن الطرائق التي بوساطتها يتمّ الاتصال بين أفراد المجتمع، ورأى أنّ التّحديد التّداولي يحدّد العلامة اللّسانيّة بحكم استعمالها في تنسيق مع علامات أخرى من طرف أفراد جماعة معينة[٢٨]، وأكّد أنّ العلامة لا يمكن تفسيرها بالاعتماد- فقط -على الظّاهر اللّغوي لها، بل يتمّ عبر الارتكاز على الإحالات المرجعيّة التي يحيل عليها النّصّ باستحضار كلّ التّجارب السّابقة الكفيلة بإظهار ما هو ضمني داخل العلامة[٢٩]؛ لأنّها عبر امكاناتها الذّاتية غير قادرة على إعطاء تمثيل كلّي وتامّ للعالم الخارجيّ.

فـ (الإشاريّات) تبقى مضمرة في الكفاية اللّغويّة فـ((لا يتحدّد مرجع هذه القرائن والمعيّنات الإشارية دلاليًا وإحاليًا إلاّ بوجود المتكلمين في وضعيّة

(٢٤) ينظر: التداولية: ٢٧.
(٢٥) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ٣٢٠.
(٢٦) ينظر: نسيج النص: ١١٦.
(٢٧) ينظر: المقاربة التداوليـــة: ٤١، آفاق جديدة في البحـــث اللغوي المعاصر: ١٦.
(٢٨) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٧.
(٢٩) ينظر: السيميائيات والتأويل: ٨٧.

التّلفظ والتّواصل المتبادل))[٣٠]، فلا يمكن للاستعمال التّواصلي أنّ يتخلّى عن هذه التّعبيرات فهي تُعنى بتحديد مرجِع الوحدات اللّغويّة حين حصول عمليّة التّلفظ والتّواصل ويحيل هذا المرجع على واقعيّة لسانيّة خارجيّة تُسيّج علاقة الدّال بالمدلول، ومن ثمّ لا يمكن أنّ يتحقّق معنى الشّيء، وتتعين هويته، إلاّ بمعرفة ظروف التّواصل وشروطه المميّزة[٣١].

ما يقود إلى القول: إنّ هذه الإشاريّات قد تكون صريحة نظهرها في الملفوظ، أو ضمنية -وهي الأغلب- نحتفظ بها في الكفاية البلاغيّة، وغلبتها متأتّية من استقرارها ((في بنية الخطاب العميقة، عند التّلفظ به، وهذا ما يعطيها دورها التّداولي في استراتيجية الخطاب وذلك؛ لأنّ التّلفظ يحدث من ذات بسمات معينة، وفي مكان وزمن معينين؛ هما مكان التّلفظ ولحظته، إذ تجتمع في الخطاب الواحد على الأقل ثلاث إشاريات هي: «الأنا، الهنا، الآن»))[٣٢]، فلا يمكن أن تتمّ عمليّة التّلفظ من دون حضور هذه الأدوات الإشاريّة الثلاثة؛ لأنّها تعني أنّ الخطاب الملفوظ يشكّل وحدة غير قابلة للتجزيء، إذ يتمّ فيه البحث عن المرجع أيّ المكون الأساسي الذي تبحث فيه التّداولية، فإذا غاب واحد من هذه المكونات الخطابيّة غاب المرجع[٣٣]، وبلحاظ ذلك فقد قسّمت الأشاريّات إلى ثلاثة أنواع رئيسيّة[٣٤] هي: (الإشاريّات الشّخصيّة، و الإشاريّات الزّمانيّة، والإشاريّات المكانيّة) [٣٥].

(٣٠) التداوليات وتحليل الخطاب(بحث): ١٧.

(٣١) ينظر: المصدر نفسه: ١٧.

(٣٢) استراتيجيات الخطاب: ٨١.

(٣٣) ينظر: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي: ٨٩.

(٣٤) بعض الباحثين عدّها سبعة أنواع، وبعضهم الآخر عدّها خمسة، ينظر على التوالي: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي: ٩٠، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٨، وعدّها الباحث ثلاثة أنواع بسبب التداخل الحاصل بينها وبين الأنواع الأخر.

(٣٥) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨١ -٨٤، والنظرية البراجماتية اللسانية: ٨٤ -٨٥.

٣. **الإشاريات المكانية:**

وهي عناصر إشاريّة تحيل إلى أماكن يستند استعمالها وتفسيرها إلى معرفة مكان المتكلم، ووقت التّكلم، أو إلى مكان آخر معروف للمتلقي، فيكون لهذا التّحديد المكانيّ الأثر في اختيار العناصر التي تشير إليه قربًا أو بعدًا أو جهةً[٣٦].

فالإشاريّات المكانيّة تختص بتحديد المواقع عبر الانتساب إلى نقاط مرجعيّة في الحدث الكلاميّ، وتقاس أهميّة التّحديد المكانيّ بشكل عام انطلاقًا من التّسميّة أو الوصف أو التّحديد، وإنّ تحديد المرجع المكانيّ مُرتكِز على تداوليّة الخطاب [٣٧]، فكلّ تلفظ في داخل العمليّة التّخاطبيّة يشير بشكل تلازمي إلى وجود المكان المتلفظ به، وهذا مرهون بالإشارة إلى المكان الذي تتركّز فيه الذّات المتكلّمة وقت التّكلم، فالدّلالة الإشاريّة لا تتّضح إلاّ في المكان الذي ينجز فيه الكلام[٣٨].

ومُحال على النّاطقين باللّغة أنّ يفسروا مثل هذه الإشاريّات، إلاّ إذا وقفوا على ما تشير إليه استنادًا إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد السّياق المادي المباشر الذي قيلت فيه، فإذا قال شخص: أحب أن أعمل هنا، ولم يشر إلى المكان فإنّ السّامع لا يفهم من المتكلم أيعني بلفظة (هنا): المكتب أو المؤسسة أو المدينة أو الدولة أو غير ذلك، فكلمة (هنا) تعبير إشاري فضفاض لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه[٣٩]، وممّا يقارب هذا الطرح في مدونة المفسر جاء على قسمين الأول: إشارة مكانية عبر اسم الإشارة، والآخر: إشارة مكانية عبر (أل) التعريف.

المبحث الأول:

الإشارة المكانية بـ(اسم الإشارة):

وأكثر الإشاريّات المكانيّة وضوحًا هي أسماء الإشارة[٤٠]، نحو: (هذا،

(٣٦) ينظر آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٢، والاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي: ٩٢.

(٣٧) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٨٤.

(٣٨) ينظر: المقاربات التداولية في شرح السيرافي على كتاب سيبويه: ٥٧.

(٣٩) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٢.

(٤٠) أسماء الإشارة صنف متعدد الوظائف

وذاك، وتلك) للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانيّة وهو المتكلم، ، فأسماء الإشارة في هذا البحث تأتي على ثلاثة أنواع هي: (الإشارة الحضورية والإشارة الذهنية والإشارة الوجدانية):

- **الإشارة الحضورية:**

فأسماء الإشارة في هذا المقام تعيّن مكانًا حاضرًا في المقام التخاطبي؛ لكون المشار إليه (المكان) فيها يدرك حسيًا من طريق المشاهدة له وتحديد مكانه قربًا وبعدًا [٤١]، حينما تكون الإشارة مرتهنة بعلم المخاطَب، فإذا علم المتكلّم أنّ المخاطَب له علم مُسبق بالمكان الذي يريد أن يشير إليه فإنّه يكتفي فقط بالإشارة إليه من دون أن يذكر لفظًا دالًا عليه وبالخصوص إذا كان المتكلم حاضرًا في ذلك المكان والمخاطَب يعلم أنّ الإشارة لا تقع إلا عليه؛ لأنّه لا يوجد مكان غيره، مصداق ذلك ورد في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦]، أنّ: ((اسم الإشارة في قوله: (هذا بلداً) مراد به الموضع القائم به إبراهيم حين دعائه وهو المكان الذي عليه امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه... فإنّ الاستحضار بالذّات مغنٍ عن الإشارة الحسّيّة باليد، لأنّ تمييزه عند المخاطب مغنٍ عن الإشارة إليه فإطلاق اسم الإشارة حينئذٍ واضح، وأصل أسماء الإشارة أن يستغنى بها عن زيادة تبيين المشار إليه تبييناً لفظياً؛ لأنّ الإشارة بيان، وقد يزيدون الإشارة بياناً فيذكرون بعد اسم الإشارة اسماً يعرب عطف بيان، أو بدلاً من اسم الإشارة للدّلالة على أنّ المشار إليه قصد استحضاره من بعض أوصافه كقولك: هذا الرّجل يقول كذا، ويتأكّد ذلك إن تركت الإشارة باليد اعتماداً على حضور

وهذه الوظائف لا تحدد إلا عند الاستعمال فبإنجازها في مقام تخاطبي معين يتحدد أثرها الإشاري المقامي فتنفتح على الخارج. ينظر: المشيرات المقامية في اللغة العربية: ٢٧٥.

(٤١) ينظر: المقاربات التداولية في شرح السيرافي: ٦٧.

المراد من اسم الإشارة، وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء بما هو الواقع عند الدّعاء، فإنّ إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة؛ لأنّ الغرض ليس تفصيل حالة الدّعاء إنّما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محلّ الدّعوة وجعل مكّة بلداً آمناً ورزق أهله من الثّمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عمّا لا تعلق به بالمقصود ألاّ ترى أنّه لمّا جعل البلد مفعولاً ثانياً استغنى عن بيان اسم الإشارة، وفي سورة إبراهيم (٣٥)[٤٢] لما جعل (آمناً) مفعولاً ثانياً بين اسم الإشارة بلفظ (البلد)، فحصل من الآيتين أنّ إبراهيم دعا لبلد بأن يكون آمناً))[٤٣].

فالنّصّ المفسَّر فيه تجليات البراعةٍ في التّحليل التّداولي عبر إيضاح مفسّره مشروعيّة استعمال أسماء الإشارة للتعبير عن الإشارة المكانيّة ' إذ تمثّل ذلك في جملة (هذا بلدًا)، حينما أشار النّبيّ إبراهيم عليه السلام إلى الموضع (المكان) الذي كان قائمًا به وقت دعائه وهو (الكعبة المشرّفة) وهذا يدلّ على حضور إبراهيم عليه السلام وأهل بيته في ذلك المكان حضورًا حسّيًا، أغنى عن الإشارة إليه باليد.

وهذا الحضور هو الذي حدا المتكلم عليه السلام على أن يعدل عن ذكر المشار إليه؛ لأنّه (سلام الله عليه) في وقت الدّعاء لم يكن مقيمًا إلاّ في مكانٍ واحدٍ (الكعبة) وكان يفترض مسبقًا أنّ المخاطَب/ المدعو (الله -عز وجل-) على علم أنّه لا يريد إلاّ ذلك الموضع المخصّص وأنّ الإشارة لا تقع إلاّ عليه، فمن ثمّ ل يحتج المخاطب إلى ذكر قرينة لفظية تدل عليه[٤٤]، و استشفاف ذلك متأتٍ من قوله: «فإن الاستحضار بالذّات مغنٍ عن الإشارة الحسّية باليد؛ لأنّ تمييزه عند المخاطب مغنٍ عن الإشارة إليه».

فهذا مرتهن بعلم المخاطب من المقصود بمجرد إجراء الإشارة؛ لأنّ

(٤٢) والمتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[الآية من سورة إبراهيم: ٣٥].

(٤٣) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٦٩٤-٦٩٥

(٤٤) ينظر المشيرات المقامية في القرآن: ٣٦٨.

المشار إليه متفرد بالوجود في الحضرة.

وهذا يعني أنّ المؤشرات التّداوليّة قرائن فاعلة في ضبط المكونات التّركيبيّة التي عبرها يتمّ تحديد القيمة التّداوليّة للألفاظ الإشاريّة بما تدلّ عليه من معطيات سياقيّة تبيّن ابهامها؛ لأنّ معالجة هذه العبارات الإشاريّة ((يرتبط أساسًا بوقوعها التّلفظي، وهو ما يقتضي معالجة الفعل الإحالي الإشاري داخل الوضعيّة الملموسة للتلفظ))[٤٥]، وهذا يتّضح عبر قول المفسر: «وأصل أسماء الإشارة أن يُستغنى بها عن زيادة تبيين المشار إليه... وقد يزيدون الإشارة بياناً فيذكرون بعد اسم الإشارة اسماً يعرب عطف بيان، أو بدلاً من اسم الإشارة»، فغرض النّبي إبراهيم عليه السلام كما يرى المفسّر هو بيان استجابة دعائه وبيان فضيلة مكان الدعوة (مكة) لتُجعل بلدًا آمنًا ((إذ يفرض المكان طبيعة الكلام وأسلوبه على المتكلم، ويفرض على المتلقي حالة معينة للتلقي والاستماع لا يمكن تجاهلها))[٤٦]، ليس هذا مرادًا فحسب؛ بل قد يؤدي اختلاف الزمان في المكان نفسه إلى اختلاف في القصد أو الغرض وإن كان المتكلم نفسه.

وهذا يبيّن لنا سرّ اختلاف الإشارة في سورة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [من الآية: ٣٥] عمّا هو في سورة البقرة؛ لأنّ الوقتين اللذين قيلت فيهما الآيتان مختلفان وإن كان المكان نفسه (مكة) وبذا فالغرض من القول مختلف، ففي سورة البقرة كانت (الكعبة) لم تسكن بعد فدعا أن تكون (بلدًا)، أمّا في سورة ابراهيم فدعا لها أن تكون (بلدًا آمنًا) بعد أن أصبحت بلدًا فطلب لها الأمن والاستقرار[٤٧]، وهذا الطرح يقرُب ممّا تبناه التداوليون بقولهم: ((يمكننا التّعرف على الغاية أو الغرض أو سبب الحدث الكلاميّ من خلال معرفتنا

(٤٥) التداوليات علم استعمال اللغة: ٤٥٥.

(٤٦) عناصر تحقيق الدلالة في العربية: دراسة لسانية: ١٧٧.

(٤٧) ينظر: الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني: ٢٢٤ –٢٢٥.

للزّمن الذي حدث فيه الكلام)) [٤٨].

وهذا يستدعي منّا القول: إنّ القرآن الكريم بوصفه خطابًا حجاجيًا بين باثٍ ومتلقٍ وظروف قول مخصوصة واختيارات دقيقة يجب أن يُراعى فيها وضع المتكلّم وحال المتلقي بالانسجام مع ظروف القول وملابساته[٤٩].

- **الإشارة الذهنية:**

ولا تقتصر الإشارة المكانيّة عبر أسماء الإشارة على الإشارة الحضوريّة (العينية) أي التي تدرك من طريق المشاهدة بالعين، بل قد يُقصد من توظيف أسماء الإشارة استحضار المكان في الذّهن، فيشير المتكلم إلى مشار إليه غير حاضر ليجعله كالحاضر المشاهد عبر الإدراك القلبيّ أو الذّهنيّ المتعاهد عليه بين المتشاركين في العمليّة التّخاطبيّة[٥٠].

وهذا الاستحضار لم يكن غائبًا عن ذهن المفسّر فقد وجدناه ماثلاً في مدوّنته، وذلك عبر وقوفه على تفسير قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠١]، ذاكرًا صلاحيّة الإشارة بـ(تلك) إلى الإشارة المكانيّة إذ أصبحت -بسبب تكرار ذكر القرى-وكأنّها حاضرة ومشاهدة عبر قوله: ((لما تكرر ذكر القرى التي كذّب أهلها رسل الله بالتّعيين وبالتّعميم، صارت للسّامعين كالحاضرة المشاهدة الصّالحة لأن يُشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السّامعين من قوم محمدﷺ ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواء فيفيئوا إلى الحق... و(القرى) يجوز أن يكون خبراً عن اسم الإشارة؛ لأنّ استحضار القرى في الذّهن بحيث صارت كالمشاهد للسّامع، فكانت الإشارة إليها إشارة عبرة بحالها... ويجوز أن يكون القرى بياناً لاسم

(٤٨) عناصر تحقيق الدلالة في العربية: دراسة لسانية: ١٧٥.

(٤٩) ينظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني: ١٢ -١٣.

(٥٠) ينظر: المقاربات التداولية في شرح السيرافي: ٦٤.

الإشارة))[٥١].

يستشف من نص المفسّر أنّ تكرار ذكر القرى في بعض آيات القرآن الكريم هو الذي جعلها تتنزّل منزلة المشار إليه الحاضر المشاهد؛ لأنّ المخاطَب قد أدرك المشار إليه قبل إجراء الإشارة، فقام اسم الإشارة بمهمّة المذكّر للمخاطب ليستدعي المشار إليه ذهنيًا، فالإشارة إنّما كانت لمعهود بينه وبين المتكلم، أي: إنّه اتكأ في إدراك المشار إليه على مخزونه الذّهني المتكون قبل التّلفظ بالإشارة ((فالمتكلم ينتج عباراته اللغويّة المتنوّعة ذات المرجعيّات المحدّدة سلفًا داخل البنية الاجتماعيّة المعيّنة، ثم أنّ المتلقي للقول يؤولها ويربطها بالمرجعيّة التي تتعلق بها))[٥٢]، فالقرى كانت حاضرة في أذهان المخاطبين (المشركين والمسلمين)، إذ كانوا يرونها عيانًا حينما كانوا يطوون الأراضي في موسم الحج أو في موسم التجارة أو السفر إلى أماكن أخر، فجاء الخطاب القرآنيّ بالإشارة إليها بـ (تلك) ليدلّ على أنّ المشار إليه بعيد وليس في حضرة المخاطَب، ولكنّه حاضر في ذاكرته، لذلك جاءت الإشارة بلفظ (تلك) الدال على البعيد؛ لأنّ ((الأصل في الإشارة الذهنيّة أن يكون اسم الإشارة بلفظ البعيد لا القريب))[٥٣].

ويستمر المفسّر في تحليله ليوضح الإفادة[٥٤] من الإخبار عن اسم الإشارة بـ(القرى) ليفصح عن رأيه بأنّ الغاية من مجيء تلك الإشارة هي للعبرة والاعتبار، فمن وظائف القصّص القرآنيّ هي الاستدلال بالماضي على الآتي؛ لأنّ ((التّجربة البشرية الماضية تعطي التّجارب التّالية كثيرًا من الوضوح والبلورة... بل إنّها تلقي ضوءًا على تجارب الإنسان المعاصر من خلال بيان

(٥١) تفسير التحرير والتنوير: ٨/ ٢١٦-٢١٧.
(٥٢) المرجعية اللغوية في النظرية التداولية (بحث): ١٤.

(٥٣) المشيرات المقامية في اللغة العربية: ٢٨٧.
(٥٤) ويراد بـ (الإفادة) حصول الفائدة لدى المخاطب من الخطاب ووصول الرسالة الإبلاغية إليه على الوجه الذي يغلب على الظن أن يكون هو مراد المتكلم وقصده أو هي الثمرة التي يجنيها المخاطب من الخطاب. ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ١٨٦.

المشابهة وتعطي الإنسان بصيرة في الحياة حيث يفتح العقل على الخطوط العريضة التي تسير عليها حياة البشر))[٥٥].

وعين هذا الأمر أكّده التّداوليون من حيث أنّ ((المتلقي مدعو إلى استعمال معرفته بالعالم وتجربته لأحداث مماثلة لكي يحكم على المقصد الذي يهدف إليه الكلام))[٥٦].

- **الإشارة الوجدانية:**

فالجدير بالإشارة: أنّ الأغراض التي تؤدّيها هذه الأسماء تكون خاضعة للسّياق وإرادة المتكلم الذي يدير الخطاب ويحرك الشّخوص بما يتناسب والمقام التّخاطبي، ويعكس المعاني التي يريد أن يصورها، وبالخصوص معاني القرب أو البعد؛ فقد يشير إلى القريب فيزيائيًا باسم إشارة للبعيد؛ لأنّه يريد أن يجعله بعيدًا في الخطاب؛ من جهة شعوره في قرارة نفسه بفاصل وبعد يفصله عنه، وقد يحدث العكس عند الإشارة إلى البعيد ماديًا باسم إشارة للقريب، وهذا الطرح أكّده بعضهم حينما رأى أنّ ((المتكلمون الذين يكونون بعيدين عن مواقع بيوتهم لفترة قصيرة ميالون إلى استعمال (هنا) للإشارة إلى موقع المنزل (البعيد ماديًا) كما لو كانوا في ذلك الموقع وقت الكلام))[٥٧].

وقد أطلق التداوليون على هذه الإشارة (الإشارة الوجدانية) التي تحصل عندما تنتقل الإشارة المكانية إلى ما يسمونه (المسافة العاطفية)، وقد نظر القدماء إليها على أنّها من باب التّجوز في استعمال أسماء الإشارة بين القريب والبعيد، وفصّلوا في دلالاتها المتناسبة مع دلالتي القرب والبعد، كالتّحقير والتّعظيم... إلخ، وهي تعكس علاقة المشير بالمشار إليه[٥٨].

ويمكن أن ندرك هذه الإشارة

(٥٥) المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه: ٧٠، وينظر: الجدلية التاريخية في القرآن الكريم: ٧٥.

(٥٦) التداولية وعناصر المقدرة التواصلية (بحث): ١٧.

(٥٧) التداولية: ٣٢، وينظر: المشيرات المقامية في القرآن: ٤١١ -٤١٢.

(٥٨) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٣، وإشارية البنى المطلقة (بحث): ٢٦.

جلية عبر النّظر في مدوّنة المفسّر في مقام وقوفه على قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢]، إذ فسّر ابن عاشور هذه الإشارة بقوله: ((وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لَدَيْهم يومئذٍ واسم الإشارة مبتدأ و(الكتاب) بدل وخبرُه ما بعده... ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن ما نزل منه وما سينزل؛ لأنّ نزوله مترقَّب فهو حاضر في الأذهان فشُبِّه بالحاضر في العيان... والإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن لجعله بعيد المنزلة. وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشّريف بالشّيء المرفوع في عزّة المنال؛ لأنّ الشّيء النّفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صوناً له عن الدّروس وتناول كثرة الأيدي والابتذال))[٥٩].

إنّ المفسّر نظر إلى هذه الإشارة (ذلك) نظرة شموليّة مشيرًا إلى أنّ العنصر المشار إليه (القرآن) يكون حاضرًا في الخطاب بالقوة وليس بالفعل؛ بوصفه لم يكن مكتمل النّزول بعدُ؛ لأنّ هناك جزءًا منه نزل بعد سورة البقرة، وهذا متأتٍ له عبر كفايته التّداولية وافتراضاته السّابقة عن المحال عليه (القرآن) ومعرفته بعالم ذلك الخطاب وسياقه، فالمفسّر ((يجب أن تتوفر فيه الكفاءة التي تمكّنه من استيعاب الخطاب وتحليله وتتمثّل تلك الكفاءة في معرفة لغة الخطاب وأسلوبه وخصائصه))[٦٠]، وقد اتكأ المفسّر في استخلاص ما يشير إليه (ذلك) على قرينتين:

الأولى: نحويّة: وهي عدّ الكتاب بدلاً من اسم الإشارة (والكتاب اسم من أسماء القرآن).

الأخرى: تداولية: وتمثلها إشارته إلى أنّ المشار إليه «معروف لديهم يومئذٍ» إذ المشار إليه (القرآن) حاضر في أذهان المخاطبين أي معرفتهم به على الرّغم

(٥٩) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٢١٦-٢١٨.

(٦٠) التداولية وعناصر المقدرة الاتصالية (بحث): ١٦.

من غيابه عن المقام التخاطبي [٦١]، إذ قد يصحّ أن يشار باسم الإشارة إلى ما هو حاضر في الذّهن ((فالمرجع لا يتعلق أساسًا بشرط الوجود أنّه يحيل على الشّيء أو الذّات أو المفهوم المحدّد بالعلامة)) [٦٢].

وبعد أن خلُص المفسّر من إثبات إشاريّة (ذلك) إلى القرآن الكريم، انتقل إلى الغرض من استعمال اسم الإشارة للبعيد ذاكرًا علة ذلك وهي « لإظهار رفعة شأن هذا القرآن لجعله بعيد المنزلة »، فإشارة البعد لم تكن إشارة حقيقيّة، بل هي وسيلة لكشف ما ينتاب المتكلم من مشاعر وعواطف، تربطه بالمشار إليه ويتميّز بأنّه لا يراعي البعد المادي للمشار إليه[٦٣]، فاسم الإشارة (ذلك) في النّصّ القرآنيّ يدلّ على البعد الاعتباري (المعنوي) الدّال على التّعظيم لبيان رفعة القرآن الكريم وسموّه؛ فالمفسّر يدرك أنّه قد يستعمل المتكلم أشياء تعارف عليها المتحدثون لكونها تدخل في ضمن مخيلتهم فقد يتخيلون أشياء بعيدة عنهم وهي في الأصل ملازمة لهم، فيرسم صورة للمشار إليه قريبة أو بعيدة متناسبة مع الظّروف الحافّة بالمقام التّخاطبي[٦٤]، فبعض ((المدلولات لا ندركها في الدّوال ابصارًا أو سماعًا، لكننا ندركها أثرًا وتخيلًّا))[٦٥]، نتكئ عليها – بمعونة مخيلتنا –في الربط والاسترجاع بين عناصر الواقع والنّصّ، ولا سيما إذا كان هذا الاستعمال متداولاً وشائعًا، فقد جرت عادة النّاس –بحسب رؤية المفسر –أن يجعلوا الشّيء النّفيس في المرتفعات ليحافظوا عليه.

(٦١) ينظر: الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق: ٢٤٠.

(٦٢) البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني: ١٨.

(٦٣) وتجدر الإشارة أن (جون ليونز) يرى أن المتكلم قد يشير إلى ما هو قريب منه باسم إشارة للبعيد ((ليدل على بغضه أو نفوره، أي أنه سيبعد نفسه عاطفيًا أو موقفيًا عمّا يشير إليه)) اللغة والمعنى والسياق: ٢٦٠، وهذا الطرح قد يتقارب مع رؤية ابن عاشور التي أدلى بها بخصوص اسم الإشارة في النص القرآني والذي يدل على التعظيم وسمو المنزلة.

(٦٤) ينظر: المشيرات المقامية في القرآن: ٣٧٦.

(٦٥) البلاغة وتحليل الخطاب: ٨١.

فبمقتضى ذلك فالمفسّر لا ينطلق ((في قراءة النّص وتلقي الخطاب من فراغ، إنّما يوظف خلفياته ومعارفه السّابقة))[٦٦] في توجيه الخطاب، ولذلك نجد أوّل ما يحرص عليه المفسّر التأكّيد على أهمية اتقان اللّغة العربيّة، ومعرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب بيئتهم سواء أحصلت تلك المعرفة بالسّجية والسّليقة أم حصلت بالتّلقي والتّعلم [٦٧]؛ لأنّ القرآن الكريم جاء ((على لغتهم [العرب] وعلى ما يعنون))[٦٨]، فمن الطبيعي أن تكون تلك القواعد السّبيل الأولى لفهم معانيه، وإدراك مقاصده ومن دون ذلك لا يضمن للمفسّر أو القارئ أن يشتط عن جادة الصّواب أو أن يقع في الغلط وسوء الفهم؛ لأنّ ((المفسّر ما لم يملك فهمًا مسبقًا، لا يمكن أن يفسّر النّصّ))[٦٩].

ويمكن تلمس ذلك عند المفسّر عبر قوله: «وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشّريف بالشّيء المرفوع في عزّة المنال؛ لأنّ الشّيء النّفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صوناً له عن الدّروس».

المبحث الثاني:

الإشارة المكانية بـ(أل التعريف):

وتشترك في الإطار الإشاري المكاني (أل) التعريف؛ لأنّها تقوم بالوظيفة التي يقوم بها اسم الإشارة والفارق بينهما أنّ اسم الإشارة يزيد عليها بالدّلالة على الحضور والمشاهدة، أمّا (أل) التّعريف فهي غير دالة على الحضور والمشاهدة؛ لأنّها تعتمد الإشارة الذّهنيّة، ويرى بعضهم أنّ التّعريف في أساسه مفهوم إشاري[٧٠].

وهذا يعني أنّ المتكلم يأتي بـ(أل) التّعريف لإثارة ذهن المخاطب وتذكيره بشيء معين (معهود) وهو المقصود بالتّعريف دون غيره فيخصّه بالحديث عنه، ولولا أنّ المخاطب على علم بهذا المعرّف،

(٦٦) الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب: ١٦١.
(٦٧) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١/ ١٦.
(٦٨) كتاب سيبويه: ١/ ٣٣١.
(٦٩) التأويل والهرمنوطيقا: دراسات في آليات القراءة والتفسير: ١٩١.
(٧٠) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٣.

ما نطق المتكلم بـ(أل)، فهو يبني كلامه على افتراض وجود مخزون ذهني عنده قبل الحدث التّخاطبي، وهذا المخزون يرتكز على أمرين هما: السّماع والرّؤية السّابقة لزمن الخطاب[٧١]، ويكتسب الكلام الجاري على هذا النسق قيمته التداولية من الطابع التواصلي بين المتخاطبين، الذي يتقوّى بالمعلومات المشتركة بينهما، المكتسبة من التجارب الحياتية السابقة فكلمة (الغار) الواردة في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [سورة التوبة: ٤٠]، اكتسبت قيمتها التداولية؛ لأن الغار معروف عند المتخاطبين، فأيّ مسلمٍ يسمع بالغار المذكور تبادرت إلى ذهنه الأحداث المصاحبة لهذه الواقعة عبر استخراج الافتراضات المسبقة المخزونة في الذاكرة من القصص والروايات الحافة بالحدث[٧٢].

وهذا الطّرح يمكن أن نستجليه في مدوّنة المفسّر حينما فسّر بعض الظّروف المكانيّة المعرفة بـ(أل) العهديّة، إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[سورة البقرة: ١٢٥]: ((والبيت علم بالغلبة على الكعبة كما غلب النّجم على الثّريا. وأصل (أل) التي في الأعلام بالغلبة هي أل العهدية؛ وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع أل العهدية كالعلم له ثمّ قد يتعهدون مع ذلك المعنى الأصلي كما في النّجم للثّريا والكتاب للقرآن والبيت للكعبة))[٧٣].

فقد كشف مفسّرنا ببراعةٍ وبعد نظرٍ في قراءاته التّداولية لنصوص القرآن الكريم عن البعد الاستعمالي لبعض الألفاظ التي قد تأتي على الأصل وقد تتحول دلالتها إلى شيء آخر لتنتقل من اسم الجنس إلى اسم العلم وهذا كلّه مرتهن بالسّياق التّداولي وظروف الخطاب التي تساق فيها المفردة، وهو ما يتمثّل بلفظ (البيت) فبعد أن كان يدلّ

(٧١) ينظر: المشيرات المقامية في القرآن: ٨٤.
(٧٢) ينظر: المشيرات المقامية في اللغة العربية: ٣٢٥.
(٧٣) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٦٨٩.

على اسم جنس عام، صار يطلق على (الكعبة) بالغلبة وهذا يعني أن (أل) التّعريف الدّاخلة عليه هي (أل) العهديّة، وبسبب دخولها تحول هذا اللفظ إلى اسم علم، ((ليحفز ذهن المخاطَب للتذكير بعهد مرتبط بالاسم الذي اقترنت به تلك العلامة فيتذكّر صفاته وما عهده عنه حتى ترتسم ماهية ذلك الاسم عنده فيكون معروفًا لديه))[٧٤]، وهذا ما يدل عليه قول المفسر: «وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع أل العهدية كالعلم له».

فالاسم المعرف بـ(أل) العهدية قد عرفه (عهده) المخاطَب، إمّا بحضوره في المقام أو بذكر المتكلم له في سياق حديثه إذ يستحضر المقام التّخاطبي بجميع عناصره، فمعرفته بالحضور (رؤيته) وذكر لفظه في السّياق (السماع عنه) فضلاً عن معرفة المخاطَب له قبل استعمال المتكلم (أل)، ومن ثمة فإنّه لا يكون متعلقًا بعمل التلفظ أو الإجراء الآني للخطاب، ولا يستلزم حضور مصحوبه في الحضرة كي يتحقق التّعريف كما هو الحال مع اسم الإشارة[٧٥].

وعلى هذا الأساس فتلقي الخطاب القرآنيّ يبقى مرتهن بفهم معهود العرب لهذا الخطاب وإلى أُسسه اللّغوية، وأنّ اعتماد معهود العرب في الخطاب يعدّ ضابطًا منهجيًا في قراءة الخطاب الديني وهو من الشّروط الأساسيّة التي تُحدّد في ضوئها دلالات الألفاظ والتّراكيب وحدود المعاني في تطبيق هذا الخطاب على الرّغم من تأثير القرآن الكريم في اللّغة العربيّة بما أضاف من دلالات عرفيّة وأخرى شرعيّة لم تعرفها اللغة قبل التنزيل[٧٦].

خاتمة البحث ونتائجه:

بعد البحث والتقصي عن المقاصد التداولية للإشاريات المكانية في مدونة المفسر وجدنا البحث فيه غاية في الأهمية لكونه ينطوي على مقاصد دلالية لا

(٧٤) مراعاة المخاطب في النحو العربي: ١٣٢.

(٧٥) ينظر: المشيرات المقامية في اللغة العربية: ٣٢٣-٣٢٤.

(٧٦) ينظر: معهود العرب في تلقي الخطاب الديني (بحث): ٥٠.

يمكن لها أن تُستجلى إلا عبر السياقات والقرائن الحافة بالخطاب القرآني وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج ولعل من أهمها:

- توصل البحث عبر تحليلات المفسر إلى أن الإشارة الحضورية تغني المتكلم عن الإشارة إلى المكان باليد؛ لحضوره فيه ولعلمه بإدراك المخاطب لذلك المكان وإذا كان كذلك فلا داعي حينئذٍ من أن يذكر المتكلم للمخاطب قرينة لفظية تدل على ذلك المكان لكفاية القرينة الحالية.
- أثبت المفسر عبر تحليلاته أن الإشارة المكانية في الخطاب القرآني لا تقتصر على الإشارة الحضوريّة (العينية) التي تدرك عبر المشاهدة بالعين، بل قد يُقصد من توظيف أسماء الإشارة استحضار المكان في الذّهن، فيشير المتكلم إلى مشار إليه غير حاضر ليجعله كالحاضر المشاهد عبر الإدراك القلبيّ أو الذّهنيّ المتعاهد عليه بين المتشاركين في العمليّة التّخاطبيّة المبني على افتراضات مسبقة.
- يرى البحث أن المفسر قد سبق علماء التداولية بالنظر إلى أسماء الإشارة التي تدل على البعد أو القرب الوجداني أو الاعتباري بحسب تعبير المفسر والتي تخرج إلى تلك الدلالات لأغراض تداولية بحسب السياق وإرادة المتكلم وهذا ما لحظناه في تفسير (ذلك الكتاب) الذي يدل على إظهار رفعة شأن القرآن الكريم وعظمته.
- إن تلقي الخطاب القرآني مرتهن بفهم معهود العرب لهذا الخطاب وإلى أسسه اللغوية حتى عدّ ضابطًا منهجيًا في قراءة الخطاب الديني هذا ما أدركناه عند وقوف المفسر على لفظة (البيت) وتحولها من اسم الجنس إلى اسم العَلَم الخاص بمكان (الكعبة المشرفة).

مناهـــــل البحث

القرآن الكريم.

- **الكتب المطبوعة:**

✓ الأعـلام، خير الدين الزركلي (ت ١٩٧٦م)، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م.

✓ الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، د. نادية رمضان النجار، ط١، مؤسسة حورس الدولية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية – مصر، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

✓ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.

✓ الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتراكيب، الدكتور. أحمد محمد أمين إسماعيل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان ٢٠١١م

✓ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

✓ البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، د. قدور عمران، ط١، عالم الكتب الحديث، الاردن، ٢٠١٢م.

✓ البلاغة وتحليل الخطاب: حسن خالفي، ط١، دار الفارابي، بيروت–لبنان، ٢٠١١م

✓ التأويل والهرمنوطيقا: دراسات في آليات القراءة والتفسير: مجموعة باحثين، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠١١م

✓ تحليل الخطاب: جوليان براون وجورج يول، ترجمة وتعليق، د. محمد لطفي الزليطي ود. منير التريكي، د. ط، جامعة الملك سعود، السعودية، ١٩٩٧م.

✓ التداوليات علم استعمال اللغة، (مجموعة باحثين)، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيل علوي، ط١، عالم

الكتب الحديث، إربد –الأردن، ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

✓ التداولية، جورج يول، ترجمة: د. قصي العتابي، ط١، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٠م.

✓ التداولية عند العلماء العرب دارسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة، بيروت–لبنان، ٢٠٠٥م

✓ الترابط النصّيّ في ضوء التحليل اللسانيّ للخطاب: خليل بن ياسر البطاشيّ، ط١، دار جرير، ٢٠١٣ م.

✓ تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، طبعة جديدة منقحة ومصححة، ط١، مؤسسة التأريخ، بيروت –لبنان، (د. ت).

✓ تونس وجامع الزيتونة، محمد الخضر حسين، جمع و تحقيق: علي الرضا التونسي، دمشق، ١٩٧١م.

✓ الجدلية التاريخية في القرآن الكريم: الدكتور. عبد الله عيسى لحيلح، ط ١، دار الوسام العربي، الجزائر، ٢٠١١م

✓ الخطاب القرآني –دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د. خلود العموش، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م.

✓ السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات ش. س. بورس، سعيد بنكراد، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء –المغرب، ٢٠٠٥

✓ عناصر تحقيق الدلالة العربية، دراسة لسانية، د. صائل رشدي شريد، ط ١، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٤م.

✓ اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد، ١٩٨٧م.

✓ مراعاة المخاطب في النّحو العربيّ، د. بان الخفاجي، ط١،، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٨م.

- ✓ المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، تودوروف وآخرون، ترجمة عبد القادر قنيني، ط ٢، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م.
- ✓ المشيرات المقامية في القرآن، منى الجابري، ط١، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت –لبنان، ٢٠١٣ م.
- ✓ المشيرات المقامية في اللغة العربية، نرجس باديس، (د. ط)، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٩ م.
- ✓ معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويهض، ط٣، دار النشر مؤسسة النويهض الثقافية، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨م.
- ✓ مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني جواد الأسدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ١٤٢٨هـ =٢٠٠٧ م.
- ✓ المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، (د. ط)، مركز الإنماء القومي، الرباط، ١٩٨٦م.
- ✓ المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، د. حواس برّي، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ✓ المنطق الإسلامي، أصوله ومناهجه: محمد تقي المدرسي، ط ٣، دار البيان العربي، بيروت، (د. ت)
- ✓ نسيج النّصّ، بحث في ما يكون الملفوظ فيه نصّاً، الأزهر الزّناد، ط١، بيروت –لبنان، ١٩٩٣م.
- ✓ النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمّام حسّان، ط٢، عالم الكتب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- ✓ النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) «دراسة في المفاهيم والنشأة والمبادئ»، د. محمود عكاشة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م.

- **الرسائل والأطاريح الجامعية:**

- ✓ ابن عاشور ومنهجه في التفسير: رسالة ماجستير، سعيد مطلك مذب، كلية الشريعة، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

- ✓ تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور (دراسة لغوية)، هدى هشام إسماعيل الزيدي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات –جامعة بغداد، ٢٠٠١ م.
- ✓ الدراسات النحوية في تفسير التحرير و التنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ثامر نجم عبد الله، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب –جامعة بغداد، ١٩٨٦ م.
- ✓ المقاربات التداولية في شرح السيرافي المقاربات على كتاب سيبويه، عمار إحسان عبد الله الخزاعي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة القادسية، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

- **البحوث والدوريات**

- ✓ الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور: سامر رشواني، مقال منشور على موقع الملتقى الفكري للإبداع: http //:www .almultaka. org /site .php?id١٦٩=
- ✓ إشارية البنى المطلقة، د. لطيف حاتم عبد الصاحب الزامليّ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، القادسية، المجلد/ ٨، العدد/ ١، ٢٠٠٩ م.
- ✓ التداوليات وتحليل الخطاب: د. جميل حمداوي، شبكة الأنترنت، موقع الألوكة.
- ✓ التداولية وعناصر المقدرة الاتصالية، د. نادية رمضان النجار، المؤتمر الدولي الرابع للغة والأدب والنقد، جامعة إربد الأهلية، كلية الآداب، للعام ٢٠٠٥م.